صفحات ونفحات

من الحب النبوى

بقلم : الدكتور محمد مصطفى حلمى
أستاذ الفلسفة الاسلامية والتصوف بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة

حبان تمكنا من نفوس أصحاب النفوس الزكية ، وتقسما قلوب أرباب القلوب النقية ، وأنطقا ألسنة أهل الاذواق الروحية من الصوفية بروائع من النظم ، وبدائع من النثر ، حتى ان الواحد من أولئك أو هؤلاء لا يكاد ينفك عنه أحد هذين الحبين أو كلاهما فيما يصدر عنه من أقوال وأحوال وأفعال ، وفيما يتأثر به أو يتأمل فيه من مشاهد الكون وحقائق الوجود وأحد هذين الحبين هو الحب الالهى الذى يتخذ المحب فيه موضوع حبه من الذات الالهية أو الحقيقة العلية ، وثانيهما هو الحب النبوى الذى يتخذ فيه المحب موضوع حبه من الرسول عليه الصلاة والسلام أومن الذات النبوية والحقيقة المحمدية .

ومن الصوفية من جمع بين هذين الحبين فى نظمه ونثره ، فكانت آثاره مرآة يتجلى على صفحتها حبه الالهى من ناحية ، وحبه النبوى من ناحية أخرى . ومنهم من تخصص فى نظمه ونثره ، أو فيما أثر عنه من نظم أو نثر ، بأحد هذين الحبين دون الآخر ، فكان فيما خلف من آثار هاتفا بأناشيد الحب الالهى ، أو شاديا بتغاريد الحب النبوى ، أو متحدثا بلسان الذوق حديثا مرسلا عن هذا الحب النبوى أو ذاك الحب الالهى .

والذين ملك عليهم قلوبهم هذا الحب أو ذاك ، قد اصطنعوا فيما خلفوا من آثار ـ لاسيما ما كان من هذه الآثار نظما ـ أسلوبين مختلفين فى التعبير عما يجدون فى أنفسهم من فعل الحب ، وما يصورونه من انفعالات وعواطف ، وما يتحدثون عنه من حقائق ومعارف : فهم يصطنعون تارة أسلوب العبارة والتصريح . بحيث يتبين فى وضوح وجلاء أن الحب ها هنا حب الهى أو حب نبوى ، وأن المحبوب الذى يتغنون حبه ويفتنون فى وصف جماله وكماله وجلاله انما هو الذات الالهية أو الحقيقة العلية ، أو هو الحقيقة المحمدية وباطن الحضرة النبوية ، أو هو محمد النبى المرسل لكافة الأنام عليه الصلاة والسلام ، وهم يصطنعون تارة أخرى أسلوب الاشارة والتلويح بحيث يخفى على القارىء العادى المعنى الذى تنطوى عليه ألفاظهم ، وبحيث يختلط الامر على هذا القارىء العادى فلا يكاد يتبين منهو المحبوب المتحدث عنه ها هنا أهو الله عز وجل ، أو هو الحقيقة المحمدية ، أو هو محمد النبى عليه الصلاة والسلام . ومما يزيد الأمر خفاء فى هذا الضرب من الاسلوب مايصطنعه فيه أصحابه من رموز وكنايات،ومجازات واستعارات ، وجلها ان لم يكن كلها مستمد من معجم الالفاظ الدالة على مخلوقات انسانية ، وموجودات حسية ، بصفة عامة أو مستقى من معجم

الألفاظ الشائعة فى كل من الشعر الغزلى والشعر الخمرى بصفة خاصة: فالحب والمحب والمحبوب والمحبوبة ، وما يتصل بهذا كله من أسماء المحبوبات كليلى وسلمى وعزة وبثينة ، ومن تباريح الحب وأحوال المحبين كالأسى والشجو والشجن ، وكالضنى والنحول والحزن ، وكالبكاء والنواح والسقم ، وكالقرب والبعد ، والوصل والصد ، وما الى ذلك من الألفاظ الغزلية الكثيرة التى حفل بها شعر العذريين من أصحاب الحب الروحى من ناحية وشعر المحققين من أرباب الحب الحسى من ناحية أخرى ، والخمر أو المدامة ، وما يتصل بها من حان وألحان ، ومن طاس وكأس ، ومن مجالس شراب وندمان ، ومن سكر ونشوة ودنان ، وغير ذلك من الألفاظ التى تتردد عادة فى الشعر الذى يتخذ موضوعه من الخمر المادية ، كل أولئك نجده منبثا هنا وهناك فيما خلف شعراء الصوفية من روائع فى الحب الالهى والمدح النبوى ، حتى لقد يخيل للبعض ممن لم تصف قلوبهم بعد من شهوات النفس ونزوات الحس أن أحد هذين اللونين من الشعر وهو الغزلى قد نظم فى حب معشوقة آدمية ، وأن اللون الآخر وهو الخمرى قد نظم فى وصف الخمرة المادية ومن هنا ذهب فريق من المتعصبين على التصوف والصوفية والمتعسفين فى فهم الأذواق والمواجيد الروحية وغير أولئك وهؤلاء ممن لا يستطيعون التسامى بمداركهم عن عالم الحس ، الى الارجاف بالصوفية ، والنعى عليهم والغض من القيم الروحية للمعانى الخفية التى تنطوى عليها الألفاظ والعبارات الغزلية والخمرية الشائعة فى الشعر الصوفى الرمزى ، سواء ما كان من هذا الشعر نسبيا الهيا أو تشبيبا نبويا . فأما أن هذه الألفاظ والعبارات الغزلية والخمريه رموز واشارات ، وكنايات ومجازات ، فذلك مالاتفهمه عقول المتعصبين ولا تسيغه أذواق المتعسفين ، ولا تقبله مدارك الغارقين فى بحار المادية والمغرقين فى ظلمات الحياة الحسية ، والمحجوبين عن ادراك الأنوار القدسية ، ومعاينة الحقائق العلوية التى ينطوى عليها ظاهر الالفاظ اللغوية .

ولست أحب أن أقف هنا عند تفاصيل الخلافات القديمة والحديثة التى وقعت بين أهل الظاهر من الفقهاء وبين أهل الباطن من الصوفية ، حول الآثار الروحية التى عبر فيها أصحابها عن أذواقهم ومواجيدهم فى حبهم الالهى أو حبهم النبوى ، تعبيرا اصطنعوا فيه أسلوب الرمز بألفاظ غزلية وخمرية ، فان ذلك حديث طويل قد أعرض له فى غير هذا الموضع من هذه الصفحات والنفحات ، ولكن حسبى أن أشير فى هذا المقام اشارة موجزة الى أشواق محيى الدين بن عربى وأذواقه فى حبه للذات الالهية تارة وللحقيقة المحمدية تارة أخرى ، وذلك فيما أودعه من أسرار هذا الحب أو ذاك ، ديوانه المعروف باسم (الذخائر والأعلاق من شرح ترجمان الأشواق) : فقد تحدث الشيخ الأكبر فى ديوانه هذا عن حبه وشوقه ، وعن وجده وذوقه ، وعما لقيه فى سبيل هذا الحب من أهوال وما تقلب عليه من أحوال ، وما كان يجد من عذاب ومحنة حينا ، ومن راحة ومنحة حينا آخر ، وكان حديثه فى هذا كله بلسان الغزل والتشبيب وذلك فضلا عما يذكره فى مقدمة ديوانه وما يضمنه بعض ابياته من حديث عن غادة هيفاء ، وغانية حسناء ، يقول انه عرفها بمكة فأحبها ، وافتتن

بحبها ، وافتن فى وصف جمالها وكمالها وجلالها ، وجعل من حبه هـذا الانسانى ، سبيلا الى حبه الالهى ، وأخذ ينزل أوصاف محبوبته الانسانية هذه على الذات الالهية وما يتصل بها من أسرار قدسية وأنوار محمدية ولقد كان هذا المسلك من مسالك التعبير الذى سلكه محيى الدين بن عربى فى ترجمان أشواقه ، مثارا لطعن الطاعنين وتشنيع المشنعين ، وانكار كل من العامة ورجال الدين ، أن يكون وراء ألفاظ هذا الديوان معان خفية أو حقائق الهية أو دقائق تجل عن الفهم وتدق على الوهم كما يزعم صاحبها . ومن هنا لم يجد ابن عربى بدا من أن يمحو ظلمة الشك بنور اليقين ، وأن يزيل ما علق بأفهام العامة ورجال الدين ، فاذا هو يضع بنفسه شرحا لديوانه يبين فيه أغراضه ومراميه ، ويكشف عما خفى على القاصرين من حقائقه ومعانيه ، واذا هو يقول فى شرحه ان هنا حبا الهيا المحبوب فيه هو الذات العلية ، وان هناك حبا نبويا المحبوب فيه هو الحضرة النبوية أو الحقيقة المحمدية

على أن البعض قد يتساءل ـ لم لم يعبر الصوفية كلهم تعبيرا صريحا عن حبهم الالهى ، ومدحهم للحقيقة المحمدية وللنبى فيكفون الناس مؤونة سوء الفهم ، أو سوء الظن ، والقاء الشكوك والشبهات ، ويكفون أنفسهم مؤونة الشرح والتأويل أو التعرض لثورة العامة بهم ، وتشديد رجال الدين فى النكير عليهم ؟ وعلى هذا يجيب الصوفية من أصحاب الرموز والاشارات ، وأرباب المجازات والكنايات بأنهم يؤثرون فى وصف أحوالهم فى الحب الالهى والنبوى ، الاشارة على العبارة والتلويح على التصريح ، وذلك اخفاء للحقائق التى تتجلى لبصائرهم وكتمانا للأسرار التى تتكشف لسرائرهم ، وضنا بهذه الاسرار ، وغيرة على تلك الحقائق من أن تشيع فى غير أهلها ، يقف عليها من ليس أهلا لها .

والذى أحب أن أخلص اليه من كل ما قدمت هو أن للصوفية فى أذواقهم ومواجيدهم حبين ، أحدهما حب الهى ، والآخر حب نبوى ، وأن نلاحظ أن المتحدثين منهم عن أحد هذين الحبين أو كليهما حديثا صريحا جليا ، أو حديثا رمزيا خفيا ، انما كانوا يصدرون أولا عن قلوب العاشقين الذائقين ، وأرواح المشوقين التائقين وذلك فيما صدر عنهم من آثار تعد بحق صورة صادقة لما فاضت به قلوبهم وارواحهم من نفحات الحب الالهى والحب النبوى ، وأنهم بحكم ما خضعوا له من رياضات ومجاهدات ، وما تقلبوا فيه من أحوال ومقامات ، وما ملك عليهم بوآطن قلوبهم من أذواق ومواجيد ، انما كانوا يطلقون أنفسهم على سجيتها ، وينطلقون مع حبهم لله عز وجل ، ومدحهم لرسول الله أو وصفهم لحقيقته صلى الله عليه وسلم ، دون أن يعمدوا فى هذا كله أو بعضه الى تكلف أو تعسف أو تصرف ، ولكنها الفطرة الصافية المشرقة ، والعاطفة النقية الصادقة ،

هى التى رسخت فيهم ، وتمكنت منهم . فأنطقتهم بما نقرأ لهم من صفحات وأفاضت عليهم ما نستشعره فى نظمهم ونثرهم من نفحات ، واذا بهذا كله يتمثل لنا أبياتا من النظم وعبارات من النثر ، ولكنها فى الحقيقة لآلىء منظومة ودرر منثورة ، يشع بعضها أنوارا من الحب الالهى ، ويشع بعضها الآخر أنوارا من الحب النبوى .

على أن هذا الذى كان فطرة وسجية عند الصوفية فى أول الأمر ، وظل كذلك عند فريق من المحققين المتحققين الى اليوم ، قد استحال على ايدى بعض أهل الأدب من الناظمين والناثرين الى لون من الوان الفن ، وضرب من ضروب الصناعة ، بحيث ترى الواحد منهم يذكر الله ويصف حبه والفناء فيه ، ويمدح النبى ويتغنى أوصاف ذاته وحقيقته ، ويعدد مناقبه ومآثره ، دون أن يكون لقلبه وروحه مشاركة من قريب أو من بعيد ، لانه لا يصدر كما يصدر المحققون المتحققون عن أذواق ومواجيد

واذا كان ذلك كذلك ، وكنت قد قدمت بين يديك فيما تقدم من هذه الصفحات والنفحات ، أطرافا من الحديث عن الحياة الروحية المحمدية ، وعن ظاهر الحقيقة المحمدية وباطنها ، وعما تنطوى عليه نبوة خاتم الانبياء من أرق المعانى الروحية ، وأدق الحقائق العلوية ، فقد رأيت أن خير ما أعقب به على صفحات الحياة الروحية المحمدية ونفحات الحقيقة النبوية ، هو أن أقف معك وقفات عند ذلك الحب النبوى الذى أثارته هذه المعانى الروحية فى قلوب العاشقين للحضرة النبوية الذائقين للحقيقة المحمدية ، وذلك بأن أعرض فى المقال التالى لتحليل بعض ما خلفه هؤلاء العاشقون الذائقون من صفحات ، وللابانة عما تفيض به قلوب أصحابها من نفحات ..

محمد مصطفى حلمى
أستاذ الفلسفة بكلية الآداب